أزمة اللغة العربية: الأميّة الجديدة وغياب الأمن اللغوي

The Arabic language Crisis: New Illiteracy and Linguistic Insecurity

د. محمد الهادي عطوي (المؤلّف المُراسِل)
كلية الآداب واللغات، جامعة باجي مختار- عنابة، الجزائر
m.attoui@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2019/05/15 – تاريخ القبول: 2019/06/17 – تاريخ النشر: 2019/06/30 – ص ص: 110- 124

ملخص البحث:

تعيش اللغة العربية اليوم أزمة معقّدة، كانت السبب في فساد الفصاحة، والبلاغة، وضرب الهوية، وقد يُعتقَد أنّ اللحن هو السبب الأساس في ذلك، ليس هذا فحسب، بل تتعاظم معه عوامل أخرى أشدّ خطرا وتأثيرا، لعلّ أهمّها: تدفق العاميات المحلّية، والدوارج، وهيمنة اللغات الأجنبية، وتحديات العولمة الخفية والظاهرة، فضلا عن تراجع العقل العربي في فكره وتفكيره وإبداعه، وفشله في تنفيذ مخطّطاته التي رسمها لضمان بقائها واستمرارها.

ومن أجل ذلك نحاول الإجابة عن التساؤلات الآتية: هل هذه الأزمة مفروضة على واقع المجتمع العربي أم هي أزمة عقل؟ وهل اللغة العربية قادرة على أن تكون لغة العلم والحضارة؟ كيف يمكننا حمايتها أمام التحدّيات الكبرى التي تواجهها، ورهانات المستقبل المجهول؟

الكلمات المفتاحية: الأميّة الجديدة، الأمن اللغوي، الأحافير اللغوية، الهوية.

Abstract:

Nowadays, the Arabic language is experiencing a complex crisis, which has been the cause of the corruption of eloquence, rhetoric and the identity damage. It may be thought that the melody is the main reason. Yet other factors seem to be more dangerous and influential; the coexistence of a dialect varieties along with normative Arabic, the supremacy of foreign languages, the unobvious grievous consequences of globalization, as well as the decline of the Arab mind in its reasoning, thinking and creativity, and its failure to implement policies to ensure the survival and continuity of the standard Arabic language.

Purposefully, we try to answer the following questions: Is this crisis a fait accompli in Arab society or is it a mind predicament? Can Arabic language set as representative to science and civilization? How can it be immunized against the great challenges ahead?

Key words: new illiteracy, language security, linguistic fossilization, identity.

مقدمة:

شهدت اللغة العربية كغيرها من اللغات العالمية الكثير من التطوّرات والمستجدّات عبر الحقب التاريخية المتعاقبة، خاصة لما تعلّقت بحجّة القرآن، فكانت وسيلة الإعجاز والبيان، ووسيلة السيادة على مرّ عصور طويلة، فقد استطاعت أن تبسط سلطانها بفضل القرآن بعدما كانت "مملكة بلا ملك" - مقولة الرافعي - فنالت في نفوس المسلمين تلك القُدسية، فاعتنوا بدراستها، وكثُر فيها البحث والدرس، وتنوّعت فيها المصنّفات وكثرت حتّى بلغت شأنا كبيرا وارتقت رقيّا عظيما، وظلّت كذلك دهرا طويلا، إلى أن بدأ التجاهل يصيبها، والهوان يمسّها، والإهمال يصيبها من لدن أبنائها وأعدائها. فقد أوقعتها التحدّيات الجديدة في شرك الغربة والتبعيّة الغربية وأدخلتها في أزمة معقّدة بين حتمية الأنظمة العالمية، وفشل مخططات العقل العربي، وسيطرة اللغات الأجنبية، وتدهور المستوى العلمي والفكري والحضاري، فآلت إلى الضعف والفساد، وهو ترجمة مثالية للسلوك الفكري واللغوي والاجتماعي الذي آلت إليه المجتمعات العربية؛ لأنّ اللغة أداة الفكر والحضارة والعلم، فإن سقط من ذلك شيء انحطّت رتبتها وانحصرت بلاغتها وفصاحتها.

يؤمن المبدأ اللساني الحديث بتطوّر اللغات، ونحن بدورنا نؤمن به، بشرط أن يكون مطّردا لدى الجماعة اللغوية، وبذلك يدخل مقاييس جديدة قياسا على ما استجدّ من الاستعمال، وليكون دخولا سلسا مرنا غير متعارض مع الأصول القديمة، وحتّى لا يخدش في تراكيب اللغة ومعانيها وأصالتها، وليكون التطوّر جزئيا مرحليا، أي أن نخرج من معيار وندخل في معيار جديد ما دام أنّه لا يعقّد مسألة الفهم وتطوّر الدلالة اللغوية، ولا يقطع تواصلا بين أفراد أو جماعات، أو أجيال، أو ثقافات وهويات وموروثات.

أوّلا- أزمة الفصحى واقع بين الجهل والتجاهل:

كانت الفصحى وما تزال المثال الأرقى لكلام العرب جميعا على اختلاف لغاتهم، فقد تمّ التعويل عليها لاستنباط مقاييس النحو العربي، فكان القياس معيارهم لإثبات صحّة الاستعمال اللغوي والسماع دليلهم في إثبات صحّة تلك المقاييس.

أمّا اليوم فقد تلاشت تلك الهيمنة، وضعف سلطان اللغة بسبب تخاذل أبنائها لمّا فقدوا الشعور بالقومية، فضاع ما ضاع من الهويّة والإشعاع الفكري والعلمي في زمن عزّ فيه حفظ المقوّمات الشخصية العربية وتاريخها، وحضارتها الإسلامية المنجزة؛ لضمان بقائها في الوجود؛ لتتوارثه الأجيال جيلا عن جيل ما دامت الحياة، ولتكتب للأمّة فضائلها وأمجادها ومآثرها الخالدة.

في البدء لا بدّ أن نعترف بكلّ موضوعية أنّ اللغة العربية تعيش أزمة حقيقة ومعقّدة؛ ولنقول بكلّ وضوح أنّ سبب هذه الظاهرة هو توهّج الدوارج، واللهجات المحلّية، وذوبانها في اللسان العجمي ممّا أدّى إلى الهجنة التي شانت أصولها وفروعها، والشوائب التي قبّحت ما كان فيها من البيان والفصاحة، فضلا عن مؤثرات التفاعل الاجتماعي، والتواصل التقني، والحوار العلمي.

نحاول دراسة مسألة تأزّم وضعية الفصحى ضمن البحث اللساني التطبيقي، باعتباره حقلا علميا خصيبا يهدف إلى "تحقيق الكفاية التخاطبية للمتكلّمين"(1)؛ وغايتنا في ذلك تحسين الأداء اللغوي وتذليل الإشكالات الحقيقية في مجال القراءة أو المحادثة، والمجال الحواري، ولِمَ لا بسط طرائق جديدة لكيفية تعلّم الفصحى ما أمكن في ظلّ العولمة والتطوّر التقني، خاصة في المدارس والمعاهد والجامعات، لفرض سياسة لغوية أمنية في كلّ المنابر الإعلامية وذلك بتطبيق معايير علمية وضوابط

فكرية مناسبة للتواصل على المدى القصير، أو المتوسط، أو البعيد. بشرط أن تكون مشروع مجتمع لا رؤية فردية تزول بزوال الأفراد والأسباب.

1- أزمة العقل والتفكير:

الفصحى هي اللغة الأدبية العليا الراقية التي نزل بها القرآن الكريم، ونُظم بها الشعر القديم، تلك اللغة التي وحّدت الأمّة العربية، وما تزال تحافظ على ذلك الرباط السامي المقدّس حاضرا ومستقبلا. وهي ليست فقط معيارا للصحة والسلامة كما يعتقد الكثيرون، بل هي لغة العادة والاستعمال للفهم والتواصل والعبادة والعلم مادامت لغة القرآن؛ تستمدّ هويتها واستمرارها منه ، ذلك الكتاب الجامع بين المسلمين والعرب جميعا على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، فأصبحت جزءا من كيانهم في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. وهي مستوى من مستويات اللغة الأدبية الراقية، أي لغة المعيار التي ارتبطت بالاستعمال والأداء وباللغات الأخرى، أو ما يصطلح عليها اللهجات حديثا. ذلك أنّ لغة القرآن كانت موضوعا للفهم، ولغته المعجزة أجبرت العلماء على الاستعجال لتدوين لغة الفصحاء المنسوجة على منواله للاستعانة بها في التفسير، وفهم الغريب، وما عسر من المعنى، فكان الربط بين لغة القرآن واللسان العربي المبين.

هذه اللغة التي تنازل أهلها عن عرشها فسقطت من مكانها العليّ إلى الدركات، ففسدت السليقة، وانحطّت رتبة الفصحى، وانهارت فصاحتها، وهو ما وضع الأمّة في أزمة حضارية معقّدة تتّصل بانحدار الهوية، وضياع التماسك السلوكي والأخلاقي والعلمي، الذي يشير إلى أزمة عقلية ترتبط خيوطها بالسياسة، والاقتصاد، والعلم والتاريخ، فأنشأ هذا المظهر الثقافي الجديد للمجتمعات العربية الإسلامية صفة التخلّف؛ بسبب ضعف أفرادها وجماعاتها وهيئاتها، فآلت إلى الضعف الذي أفقدها القدرة على المحافظة على خصوصيتها وحماية كيانها، فأصبحت الأمّة تائهة في غياب التخطيط العلمي لشؤون المجتمعات العربية[(2)] التي سيطرت علها التبعية والتقليد والخضوع للثقافة الغربية بسبب الاحتلال الأجنبي، والغزو الثقافي الغربي جملة.

ألا ترى أنّ القدامى لمّا عكفوا على دراسة اللغة العربية كان المقوّم الأوّل حفظها من اللحن وإبقاؤها على هذه الحال من الفصاحة والبيان؟ ولقد خشي العلماء القدماء من ذوبان هذه اللغة في اللغات الأخرى، لذا أجبرتهم قوميتهم واعتزازهم بلغتهم وعقيدتهم على حفظ هذه اللغة.

2- أزمة التعليم ومصادرة الأصول والمخطّطات:

لعلّ من أسباب فساد الفصحى[(3)] الابتعاد عن استعمال الأصول النقلية -القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب- لأنَّ حفظ هذه المدوّنة أسهل من حفظ معايير اللغة وقواعدها التجريدية، إذ تكمن الصعوبة في التعبير الكتابي والشفهي، فقد نكتبها صحيحة، ولكنّنا نقرأها خاطئة في بنيات ألفاظها وفي إعرابها[(4)]. ولذلك فتقويمها لا يكون بتعلّم علوم العربية فحسب، بل بحفظ المتون المختلفة، ومطالعة أمهات الكتب ومعاهدتها باستمرار، ليكسب اللسان جبلّة الأوّلين في الفصاحة والبيان.

قلّة القراءة والكتابة -التدوين والتأليف لا الفعل- كما قال الرافعي "الأمّة التي لا تكتب أمّة لا تقرأ" وهذا صحيح فإن لم نكتب فماذا سنقرأ؟ أرأيت عرب الجاهلية كانت أمّة أمّية لا معارف لهم ولا حضارة بهذا السبب؟

أضحت التقنية -أيضا- وبالا على القراءة والكتابة، فحتّى الطلبة والمتعلمون تورّعوا عن الكتابة واستبدلوا التصوير بالكتابة، بل أصبحوا يصوّرون الدروس والمحاضرات ويسجّلونها بالوسائل الحديثة والهواتف الذكيّة، ولا يكتبون حتّى جدول استعمال الزمن، بل ويسترقون السمع بتسجيل المحاضرات صوتيا -ما أمكن- ووضعت الأقلام جانبا إلى أجل مسمّى إلى يوم الامتحان.

كما عملت الصحافة المكتوبة على تكريس اللحن بكلّ أشكاله بسبب عدم معرفة كثير من الصحافيين الذين يكتبون فيها بقواعد اللغة واستعمالاتها. وكذلك تفعل الكثير من المنابر الإعلامية المرئية والسمعية البصرية، بإجراء حوارات تطغى عليها اللهجات المحلّية والدارجة واللغات الأجنبية على حساب الفصحى. ودعواهم في ذلك الاتصال بكافة شرائح المجتمع والتواصل معهم داخل الوطن وخارجه حتّى يعمّ الفهم والتواصل؛ وليس ذلك إلاّ لرفع نسبة المشاهدة لهم.

أمّا المنظومة التعليمية والتربوية فقد تميّزت بالتذبذب والفشل والاضطراب بسبب عدم استقرارها على إعداد مشروع مجتمع قائم على أسس علمية ومنهجية دقيقة وطويلة المدى، بل أصبح التعليم السائد قائما على الحشو والتلقين الكمّي على حساب التعليم النوعي(الكيفي) بسبب فشل التخطيط، وضخامة البرامج، وضعف المحتوى، وعدم استشارة أهل الرأي والاختصاص المتفوّقين في الميدان، الأمر الذي كرّس حتمية ضعف الإبداع لغة وأسلوبا، وكذلك ضعف مستوى الكثير من المعلّمين والأساتذة.

لمَ ارتبط تدريس بالفصحى بعدم مواكبة العصر؟ وهل الفصحى أصبحت متحجّرة وأصبحت حبيسة المصنّفات والمعجمات والمأثورات أم أنّ عدم استعمالها هو السبب؟

هل أصبح العامل النفسي -بسبب الظروف الاستدمارية التي عاشتها كثير من الدول العربية- السبب الرئيس في تشكّل عقدة نفسية من لغاتها الأم؟ لأنّ الأمم المستدمرة حاربت هذه اللغات وهوياتها التاريخية، ومرجعياتها العقدية والروحية. لم أصبحت الهوية العربية ضائعة؟ فالعربي يخجل من الحديث بالعربية الفصحى ولا يلقى بدّا من الحديث بلغة أجنبية مثلا، من مثل ذلك ما نقرأه في الإشهار، أو ما يصلنا من رسائل مكتوبة عبر الهاتف بأحرف أجنبية، أو ما يكتب على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها. هذا الضعف العام في مستوى اللغة قد يؤدي إلى زعزعة أمن الهوية، وإضعاف معاني الانتماء[5].

وأصبحت لغة التعليم في بلدنا لغة المفارقات العجيبة فالتعلّمات في الابتدائي والمتوسط، وتخصّصاتها في الثانوي تقدّم باللغة العربية -وما فيها من الضعف والتقصير في الطرائق والوسائل، والبرامج، والمحتويات- وتحوّل لغة التعليم في الجامعة في أغلب الشعب -وبخاصة منها العلمية والتقنية- باللغة الفرنسية، وفي ذلك تذبذب واضح في مستوى الدراسة والانحطاط اللغوي، ولذلك نصادف مهندسا، أو طبيبا، أو معماريا، أو بيطريا، أو طيارا، بعد سنوات لا يستطيع التوفيق في المحادثات، كما نرى في الفضاء الإعلامي وبخاصة السمعي البصري. ولذلك يتمثّل الخطر الكبير عندما يقلّ أو ينعدم استعمالها، ومن ثمّ تقلّ مهارة المتكلّمين بها مع الزمن وتتحسّن في الوقت نفسه مهارتهم في استعمال لغات أخرى أجنبية بفضل اتّساع استعمالها[6]. وهذا دليل واضح على أنّ اللغة

استعمال قبل أن تحفظ بالمعيار الذي جلب لها الوبال بتعقيد المسائل المجرّدة والعقلية.

بحيث تحافظ اللغة على أنماطها القديمة وفق سياقاتها ما دامت محفوظة في المصنفات الشعرية، والمعجمات، والقرآن الكريم والحديث الشريف، فلكلّ إنسان الحقّ في حفظ بعض متون هذه اللغة. لنقول في الأخير: الذين لا يقولون بالاستشهاد بالأمثال والحكم القديمة والحديثة الشريفة، ما قولكم ما يمس هذه اللغة من تحريف وفساد؟ أليس من اللائق أن نراعي مبدأ الفصاحة والسلامة والصحة في تداول هذه النصوص؛ ليستقيم اللسان العربي من جديد؟

3- وهم التيسير:

ولدت هذه الأزمة من رحم السياسة الفاشلة في التربية والتعليم التي لم تكن لها الخطّة العلمية الموضوعية المناسبة، والإرادة السياسية الناجحة، ومشروع واضح المعالم والأهداف. فقد كثُرت الدراسات والبحوث لمعالجة هذه الظاهرة، ولكنّها لم تُجْدِ نفعا، فمستعملوها يواصلون ذلك الهبوط الرّهيب في تدمير فصاحتها، بقصد وبغير قصد، ولمّا أقبل النّاس إليها يزفّون، يريدون أن يرجعوها إلى سيرتها الأولى فشلوا في ذلك فشلا ذريعا؛ لأنّهم عجزوا عن وضع مشروع اجتماعي محدّد الأهداف، يعالج به أمر هذه اللغة، بل بقوا على سياستهم الفاشلة جاثمين، فلم تُغنِ من البحث شيئا.

بالغ الناس في تعليم النحو العربي تعليما تجريديا حتّى شقّ الأمر على المتعلّمين، ولم يكن الحلّ الأنسب لتعلّم اللغة: فاللغة تحفظ بالدربة وإجادة الاستعمال الصحيح، لا بحفظ القواعد وبسط العلل، فقد أصبحنا، اليوم، في خلط رهيب في فهم القضايا اللغوية والنحوية ومصطلحاتها، ومنها اللغة والنحو. فلِمَ نعلّم النحو وعليه كلّ التعويل والمزيّة والشرف ونذر العربية بمختلف مدوّناتها الضخمة؟ لعلّ الاحتفال بالمعايير الصارمة هو السبب، فقد أخلط الناس بين اللغة (المدونة النقلية المسموعة) ومعاييرها (النحو)، فهل تدريس النحو من باب التيسير هو السبب؟ لمَ لمْ تختر مواد لغوية تتعلّق بالمدوّنة النقلية المسموعة حتّى لا يكون القياس فقط على المعايير، بل يوافقه الاستعمال حتى يألف المتعلّمون استعمال هذه المسموعات؟ فهُمْ يعلّمون المقاييس النحوية ويَحْسَبُون أنّها طريق إلى تعلّم اللغة وفهمها، ولكنّ الفرق بينهما شاسع، فهذا أعرابي قيل له: "أتهمز اسرائيل؟ قال: إنّي إذا لرجل سوء، قيل له أتجرّ فلسطين؟ قال: إنّي إذا لقويّ، وقيل لآخر: أتهمز الفار؟ فقال الهرّة تهمزها"[7]. وهذا دليل على أن الأعرابي لا يعرف الصناعة، أو المصطلحات الموضوعة، وإنّما تعامل مع الدلالة المتواضع عليها في العرف اللغوي، لا في المقاييس عند الجماعة النحوية المخصوصة بهذا الوضع.

إنَّ الدعوة إلى تحسين اللغة يعني أنّها في أزمة ما، وأنّ تعليم المبتدئين أو المتعلمين لغة منقّحة تنقيحا يسيرا، أو ما يسمّيه البعض بالفصحى المخفّفة هو تعليم لقواعدها ومن ثمّ توجب الفصحى الراقية على مَن يستطيع إتقانها من دون عناء[8] بفضل الإقبال على الأصول النقلية التي بنيت عليها قواعد النحو العربي.

والفصحى المخفّفة هي وسط بين العامية المنقحة والفصحى العالية. إلاّ أنَّ هذه اللغة تبقى مجرّد تصوّر قد يسيء للفصحى في طرف آخر، كونها تليق بتعليم المبتدئين أو حديثي السنّ. أمّا في الثانوية والجامعة فالفصحى المخفّفة قد تفسد ملكة الفصحى العالية لدى متعلّمي هذه المرحلة، وكان من

الأولى أن تحمل معنى التيسير والتسهيل، أي: استعمالها بكيفية لا يدخل فيها الغلط أو اللحن أو العامية، أو الأجنبي.

إنَّ القائلين بالفصحى المخفّفة هم دعاة إلى العامية؛ لأنَّهم يرون أنَّ الفصحى لم تعدْ صالحة لمواكبة العصر، وأنَّها ليست لغة العلم، وأنَّها رهينة المقدَّس، ولذلك طالبوا بإحلال العامية محلّها، وهذا غلط ليس بجديد يمثّل صدى لأفكار روَّج لها بعض المستشرقين – أمثال "wilhelm spetta " و "g. colin" - ويرتبط هؤلاء بالدوائر الاستدمارية في خدمة مشروعهم في بعديه الثقافي واللغوي، فقالوا بأنّ العربية الفصحى لم تعد صالحة لمواكبة التطور، وأنّها ليست لغة العلم، وأنّها لغة جامدة ومشحونة بالمقدّس، وهم لا يعلمون أنّها نالت قدسيتها من القرآن الكريم ، ووحّدت كلّ لغات العرب، فنطقت بها على أحرفها جملة، وكانت سببا للإعجاز والتيسير في فهم الأسلوب القرآني.

ومع ذلك فقد لقيت هذه المسألة مقاومة شديدة من لدن المثقّفين العرب الذين دافعوا عن الفصحى وسعوا إلى تطويرها وتجديدها؛ لنقض هذه الأطروحة[9]؛ لأنّ دعواهم حجّة واهمة، بل هي دعوى مفخّخة؛ لأنّ هؤلاء يريدون أن يجعلوا من الفصحى مرحلة تاريخية محدّدة الاستعمال ومنتهية الصلاحية، وذلك بجعلها من الأحافير اللغوية، أي: "إنّ العربية لغة جامدة، وأنّ موتها حتمي، وأنّ المستقبل للعاميات(الدوارج)" [1] ، وهذا مجال يؤدي إلى ذوبان اللغة العربية في العاميات واللغات الأجنبية، لمَ لا نسعى إلى تطوير اللهجات وجعل الفصحى تنزل إلى مستواها ، ليتحقّق التوازن المزعوم لفهم الفصحى في العملية التعليمية؟ لمَ لا يكون العكس: أن ترتقي اللهجات إلى مستوى قريب من الفصحى، وتهذّب، وتليق بالاستعمال المقرون بالفصاحة؟

خذ ما تصفّحته يوما في جريدة قرأت فيها عبارات لافتة في رسم كاريكاتوري:

"مُونْ دِيُو طْرَافَرْسِيتْ لُطْروطْوَارْ مْوان سانْكْ كْرازَتْني طُومُوبيلْ"[11]، وهي كلمات كلّها أجنبية – فرنسية:

" Mon dieu une voiture m'a presque choque quand j'ai traversé la route" صيغت بالعامية، كأنّها عربية، والمعنى : يا إلهي، كادت تصدمني سيارة لمّا اجتزت الطريق". أليست هذه اللغة خطرا على اللسان العربي؟

وشبيه ذلك تغيير لمصطلحات على الرغم من وجود البدائل العربية لها من جملة ذلك: "الأنتيبيوتيكس" للمضاد الحيوي، و"كانسر" للسرطان في الطب، و"الكومبيوتر" للحاسب الآلي، و"الإنترنيت" لشبكة الاتصال، و"الإيميل" للبريد الإلكتروني، في علم الاتصال، وفي العلوم الإنسانية "الإبستيمولوجيا" للمعرفة، و"الأنطولوجيا" للوجود، و"الأكسيولوجيا" للقيم، و"السيكولوجيا" لعلم النفس، و"السوسيولوجيا" لعلم الاجتماع، و"الأنثربولوجيا" لعلم الإنسان، وما انتقل إلى الحياة العامة "كوفي شوب" للمقهى، وبيتزا هوت"، وغيرها[12].

إنّ دعاة الفصحى المخفّفة يريدون أن يجعلوا من لغة العقيدة والقرآن لغة العامة بدعوى التطوّر، ليتعلّم بها الناس العلوم والمعارف، ولكنّه على ما يبدو تطوّر سلبي له أثره على "استقرار الهوية وتطوّرها السلس، لا بدّ من إدراك التفاعل القائم بين الهوية ولغة التعليم"[13]؛ لأنّ إدراك هذه العلاقة يعني إدراك الفرد لموقعه في مجتمعه ووطنه، ولأنّ هوية الفرد نابعة من هوية لغته، فلا بدّ إذن من

سياسة لغوية ناجحة ومشروع تعليمي واضح الأهداف على المدى الطويل ؛ ليكون أكثر استقرارا يسهم في إنجاح التخطيط اللغوي، وبخاصة بعد اجتياح العامية والدارجة واللغات الأجنبية في لغة التدريس والبحث العلمي.

2 – توجيه الفصحى إلى الأحافير اللغوية:

الأحافير[14] أشكال لغوية التي قضت عليها سنّة التطوّر بالانقراض وعدم الاستعمال والتداول؛ لأنَّ عدم الاستعمال قتلها واستبدلها بغيرها، ونحن لا نتعرّف عليها إلاّ ضمن متحفها المتمثّل في المصنّفات الأصلية كالمعجمات والكتب القديمة التي تضمّ اللغة القديمة، أو اللغة الأدبية الراقية. فإن عمد كاتب ما إلى محاولة بعثها وإحيائها من جديد فلا يمكنه ذلك؛ لأنّ نجاحه يكون فرديا أو من جهة واحدة تمثّل إبداعه. ذلك أنّ المجتمع لا يعبأ بها، ولا يلتفت إلى استعمالها، وبالتالي تمجّها الأذواق، وتستثقلها الألسن، ولا تخطو بها الأقلام فكرا واستعمالا، وإبداعا.

تقلّص استعمال هذه اللغة بفعل مؤثرات اللهجات واللغات الأجنبية ، والأنظمة الدولية الجديدة ، فجهلت المعرفة باللسان العربي، وأهملت معرفة العربية وإعجاز القرآن، وفهم بيانه وأحكامه، وشرائعه، لا يجيدها الناس إلاّ في أحوال نادرة، فقد تخلّى عنها أبناؤها، ولم يحاولوا معايشتها واستعمالها ولو في المعاهد والمدارس والجامعات، والمنابر الأكاديمية، والمؤتمرات الرسمية، والوسائل الإعلامية، والمؤسسات الإدارية والاجتماعية، والتربوية، وغيرها.

كانت اللغة مفتاح العلوم في عصورها الزاهية، فعلماء اللغة، والأطباء، والفلاسفة، وعلماء الفلك، والجبر، والكيمياء، وغيرهم كانوا يقدّمون صنائعهم ويقيّدونها بلغة عربية راقية منطقا وكتابة، أمَّا اليوم فإنّ أغلب علماء العرب لا يتواصلون إلاَّ بلغات أجنبية، وهذا دليل تقلّص حدود حفظ العربية فهما واستعمالا، وانتماء، وهذا الانسلاخ عن الهوية من الانحطاط الفكري والعلمي عند العرب، بحيث أصبحوا تبعا للغرب في كلّ شيء. بل رسخ عندهم الاعتقاد الخاطئ بأنَّ اللغة العربية لا تفي بحاجات الإنسان المعاصر، ولا تستجيب للمعطيات الحضارية[15]، هذا الانحراف الخطير يشير إلى مدى التأثر بثقافة الآخر وحضارته ،هذه القابلية الخطيرة جرّدته تقريبا من كلّ انتماءاته لقوميته وأصالته، وألبسته لباس الهزيمة والضعف، وأشعرته بالروح الانهزامية والتبعية للعجم، وانحصر بعُقَده أمام كلّ تصوّر أو فكر عربي، ولذلك حقّ القول في ذلك إنّ "الأزمة أزمة عقل".

في المقابل نرى الإعلام الأجنبي يحترم اللغة العربية - وإن كان لأغراض أخرى- وذلك بحرصهم على حسن أداء اللغة وصحتها "كقناة البي بي سيBBC، وفرانس France 24 والقناة التركية، والحرّة الأمريكية، والروسية التي تبث باللغة العربية"[16]، خلاف ما يُبثُّ في أغلب القنوات العربية التي تغلب عليها اللهجات المحليّة والعاميات، وكثرة اللحن، والعصبية، والجدل، واتّباع سفاسف الأمور كالرقص والغناء. فاللغة "تنمو وتنهض، وتتراجع، وتتخلَّف، وتندثر وفقا للتعامل الإيجابي أو السلبي الذي تلقاه من مجتمعها"[17]. وخذ عن ذلك أمثلة الكتاب والشعراء العرب المحدثين كأحمد شوقي، ومحمود سامي البارودي، ومفدي زكريا، وأبي القاسم الشابي، وعبد الرحمن الكواكبي، والبشير الإبراهيمي، وغيرهم كثير. لم كانوا متألقين فصحاء، وهم ليسوا من القرون الزاهية في الفصاحة والبيان؟

إنّهم من النخبة التي تعلّقت بتراثها، وتمسّكت بهويتها وعقيدتها، ورضعوا من مصادر اللغة الأصيلة، ثمّ استعملوها حتّى أجادوها فلانت بها ألسنتهم فصارت من نحائزهم وسلائقهم، وبها عوّلوا على الإبداع، الفهم الإفهام.

فاللغة كائن حيّ يتطوّر برعاية مستعمليه في كل الميادين؛ الاجتماعية، والتاريخية، والاقتصادية، والسياسية، والإدارية، والإعلامية، والعلمية، والتجارية، والسياحية، والقضائية، والرياضية، وغيرها. وإذا ما أهملت أضحت من الآثار اللغوية، لأنّ الاستعمال يحييها ويبقيها، والإهمال يميتها ويُفْنيها.

3- اللغة ومسألة الهوية العربية:

تمثّل اللغة العربية هويّة الأمّة ، ودليل تواجدها، وعنوان خلودها، فهي "ثقافة وحضارة، وليست أداة للتواصل فحسب: إنّها ليست أداة للفكر، بل هي الفكر بذاته، وهي مرشّحة لأن تشكّل إحدى أهم الهويات للفرد المعاصر المتعدد الهويات، بل إنّ الهويات الأخرى كلها تصاغ بواسطتها"[18].

وهذا إثبات على أنّ اللغات مخزن للهويات، وبه يتحقّق الصراع الأبديّ الذي يجري بين جميع الأمم لأثبات الوجود وفرض الهيمنة والسيطرة على من هو أقل منه حظّا في الرقي والعلم. فالمجتمع الذي يمارس لغة راقية هو ذلك المجتمع المتحضّر الذي يعبّر عن منبع فكره، وطريقة حياته، ونموّه الذهني والسلوكي، والنفسي والاجتماعي، فهي مستودع الآمال، والأخبار، والأحوال، والأيّام، والأفراح، والأحزان، والعادات والتقاليد، مثلما استقرأناه عن أسلافنا ممّا صنعوه من تاريخ الذي تمّ نقله بالرواية الشفوية، فضاع منه جزء كبير بسبب التغيير والنسيان مع مرور الزمن، فعن يونس بن حبيب أنّه قال: قال عمر بن العلاء (154هـ) : "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلاّ أقلّه، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[19].

إنّ عبقرية الأمّة وفكرها وقوميتها تتجلّى فيما يجري على لسانها، فإذا ضعفت اللغة العربية انقطع حبل الصلة بين الإنسان وأصالته، ومن ثمّ تُعدم هويته، فلا يقدر على حماية مقوّماته الدينية والحضارية؛ لأنّ "اللغة سلاح الدّفاع عن الذات"[20]. فإذا تشاغل النّاس عن لغتهم بسفاسف الأمور تدنّى مستواها، وانحطّت رتبها، وقد يؤدي بهم ذلك إلى الابتعاد عن لغتهم، وجهل خصائصها، واستعمالاتها، وقد تضيع تقاليدهم وأعرافهم، وتنسلخ هويتهم؛ لأنّ فهم الدين لا يُتحصّل إلاّ من طريق فهم هذه اللغة: لغة القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، فنفخ فيها من روحه، وأصبح منبعا أصيلا لها، فأضحى معجزة بيانية خالدة، ولمّا حفظ الله تعالى القرآن الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[سورة الحجر، الآية : 9]، كتب الخلود للغة العربية أيضا، ولذلك نالت الشرف الكبير عند العلماء فأفردوا لها مصنّفات كثيرة شكّلت تراثا ضخما في تاريخ العرب والإنسانية، ومن ثمّ قدّسوها وجعلوا تعلّمها من فروض الكفايات، وبها يتحقّق التعليم، وفهم القرآن الكريم، حتى قال الشافعي: "فعلى كل مسلم أن يتعلّم من لسان العرب ما بلغه جَهْده حتَّى يشهد به أن لا إله إلاّ الله، وأنَّ محمدا عبد ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"[21] وقال السيوطي: "ولا شكّ أنّ علم اللغة من الدين؛ لأنّه من فروض الكفايات، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنّة"[22]. ومعنى هذا أنّ تعلّم العربية طريق لفهم أساليبها بما تقتضيه سنّة التطوّر لا على مبدأ العادة، كما يحصل اليوم في كثير من الأقطار

العربية من سوء فهم لكثير من الدلالات والأحكام في القرآن.

سألت يوما من كان يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. [سورة المائدة، الآية : 12].

ما معنى عزّرتموهم؟ فقال : أرعبتموهم، و"عزّر" في العامية الجزائرية بمعنى خوّف بشدة، أو أرعب، ولكنّه في العربية مخالف للفهم والسياق، والصحيح أنّه يدلّ على النصرة، أي نصرتم رسلي وآزرتموهم.

لذلك لا يكفي أن نجعل اللغة العربية لغة القرآن دون استعمالها؟ فاعتياد اللغة تزيد العقل والخلق والدين، ومن ثمّ وجب معرفتها وفرض تعلّمها، وهو ما يؤكّده رأي أبي نصر الفارابي في أنّ لغة الأمّة تحصل بمبدأ "العادة والاستعمال"[23]. فهل ندفنها في دفوف المصنّفات ونجعلها من الأحافير الأثرية؟ أنريد القرآن مجرّد كتاب للتلاوة من غير فهم؟ أنريده كالإلياذة والأوديسة بعد أن انقرضت اللغة اليونانية المعربة التي كتب بها؟ فالجواب أنّ المسلمين لا يريدونه بلغة منقرضة كلغة اليونان القديمة التي يتخصّص فيها من كلّ مئة ألف شخص واحد[24]، بل يريدونه بلغة حيّة مفهومة غير مجهولة تقودهم إلى فهم بيانه وإعجازه، كما يسمعه العامي في المذياع، أو في التلفاز، أو القارئ في المسجد، أو في الانترنت، أو أي تقنية جديدة يأتي بها المستقبل[25]؛ لتظلّ لغة القرآن مفهومة عند العام والخاص. لِفقْه معانيه، وعلومه، وأحكامه، وشرائعه، بل والتأثر بسماع وعيده ونذيره، أو ترغيبه وترهيبه، وهكذا.

فاللغة وسيلة حضارية يعبّر بها الإنسان في الحياة عن المظهر السلوكي، والفكري، والثقافي، والحضاري، والشعوري، والانفعالي، والاجتماعي، وغيرها، أي: نتائج مؤثّرات المحصّلة الحضارية التي تطبع على قناعاته ومعتقداته، وأعرافه الجديدة والقديمة، بما يحمله هذا التطوّر من سلبيات وإيجابيات.

4 – الأميّة الجديدة والأمن اللغوي:

إنّ الحال السيّئة التي آلت إليها اللغة العربية أنبأ بخطورة وضعها، وضرب استقرارها، وهدّد كيانها، ذلك أنّ المثقفين والمتعلّمين هم الذين يسهمون في هذا الانحطاط بالدرجة الأولى، ومن ثمّ اندفع بعض الدارسين الغيورين على لغتهم ، لتحقيق الأمان لهذه اللغة، والذي لا يكون إلاّ بسياسة حكيمة راشدة، وبتوجيه علمي دقيق.

أ- الأميّة الجديدة:

يتأرجح هذا المصطلح بين الألفة والغموض عند الكثيرين، إلاّ أنّه يختلف عن مفهوم الأميّة المتداول بين الناس، فهي ليست ضدّ الجهل، ولكنّها من التجاهل، والتخاذل، أي: تجاهل المعلوم المعروف الصحيح من المعرفة، دون الاكتراث بما قد يقع فيه المتكلّم من لحن أو خطأ، وبشكل أوضح هي ما يقع فيه المتعلّمون والمثقفون من فساد ولحن عند استعمال اللغة في التواصل العلمي، والأكاديمي، والاجتماعي، أو ما يتوهّمون أنّه صواب، فيخرجون عن المقاييس المتداولة، والغرابة في الأمر أنّ اللحن يتسرّب إلى ألسنة المتكلّمين والمتحاورين المتعلّمين والمثقّفين بصورة لافتة للانتباه، مثلما نشهده في الصحافة ومنابر الإعلام، والمساجد، وما نسمعه في

المؤسسات التربوية والتعليمية، والمدارس، والمعاهد، والجامعات.

والأمّية الجديدة مصطلح جديد بدأ تداوله في المجتمعات الغربية الحديثة المتحضّرة كالولايات المتّحدة الأمريكية وكندا، فهو يختص بالفئة المتعلّمة التي تحسن القراءة والكتابة، كالتلميذ، والطالب، والأستاذ، والصحافي، وغيرهم، ولكنّه لا يحسن القراءة أو الكتابة الصحيحة وفق المقاييس والحدود المعيارية الموضوعة، والتي تعلّمها في جميع الأطوار التعليمية – الابتدائي، والمتوسط، والثانوي، والجامعي- خاصة لدى طلبة الجامعات، ومن أجل ذلك تقرّر عدم قَبول الطلبة في البرامج والأقسام إلاّ بعد نجاحهم في امتحانات اللغة الإنجليزية(26)، ومن هنا يختلف هذا المصطلح عن المفهوم التقليدي للأميّة التي كانت تعني الجهل بحدود القراءة والكتابة. ومن مظاهر هذه الأمية(27):

- التدريس بالعامية، بحيث تكتسح العامية قاعة التدريس أو الندوات العلمية، أو المحاضرات، والمؤتمرات، والاجتماعات الأكاديمية الرسمية، واللجان التربوية، ومناقشات أطروحات الماجستير والدكتوراه، وغيرها.
- وكذلك شيوع اللحن على ألسنة الناطقين والتداول الواسع للأقيسة والتراكيب، والصيغ، والأساليب التي لا تمتّ بصلة إلى الفصحى، إذ تفرض نفسها على الحياة الثقافية والأدبية والإعلامية، فاقتدي بها ونُسج على منوالها، وبذلك أصبحت اللغة الهجينة هي الأصل والقياس، واللغة الفصيحة هي الاستثناء، وهذا مظهر سلبي للظاهرة اللغوية(28).

وهذا التجاوز الرهيب عند المتعلّمين والمثقّفين، وفي الصحف، والخطب الوعظية في المساجد، وحتّى في الآذان وإقامة الصلاة، وبمستويات أقلّ عند المعلّمين أنفسهم.

<u>ب- الأمن اللغوي:</u>

يفرض هذا الواقع اللغوي الخطير على المجتمع العربي البحث عن مخرج أمين للحدّ من خطورة هذه الأزمة، وللمضي قدما نحو لغة العلم والتحضّر. إلاّ أنّ مسألة الأمن اللغوي في المجتمع العربي بقيت مجرّد أفكار وحوارات تناقش في الملتقيات والمجامع، وتبقى غير مجسّدة عمليا في الواقع، ولم تشكّل مشروع مجتمع واضح الأهداف، والدليل على ذلك أزمة الفصحى في الهيئات العلمية والتعليمية في جميع مراحلها. إذ لابدّ من سياسة تعليمية صادقة وإرادة سياسية جادّة لإيجاد الحلول وتجسيدها عمليا وعلميا.

وأمام هذا الفشل الذريع يرى بعض المتخاذلين أنَّه لا ينبغي أن نفكّر في استرجاع سليقة الأعراب للتكلّم بها في هذا العصر من دون تفكير في قواعدها، فقد زاد التباعد بين الفصحى العالية وبين المتعلّمين على الرغم من محاولات الدارسين في تيسير مقاييس النحو وإيضاحه، وأنَّ تأمين هذا المستوى لا يزيدنا إلاَّ إخفاقا(29). ومن ثمَّ يصير السلوك اللغوي دليلا على تطوّر المجتمع أو انحطاطه، لكن التيسير ليس بالضرورة طريقا لتعلّم اللغة، وهذا الفرق الذي لا يميّزه الكثيرون ، فقد سمعت الكثير من حفظة القرآن الكريم والأحاديث يجيدون استعمال اللغة، ولكنّهم لا يعرفون معاييرها، أو تفسير مقاييسها وظيفيا، ومع ذلك يحسنون التواصل بلغة مقبولة. والذين يتعلّمون بعض مقاييس العربية وعللها ومسائلها لا يحسنون العربية استعمالا.

ولكن كيف نحافظ على لغتنا؟ الأمر يبدأ بالتدريج من الفرد إلى المجتمع، إلى الهيئات الوصيّة، تبدأ أولا بالاستعمال والممارسة الصحيحة، من خلال

سياسة تعليمية مدروسة، فلا بدّ من سنّ قوانين تحميها ،كما هو في جميع الدول العربية التي وضعت مبادئ دستورية ترضى احترام اللغة العربية، وأنّ المساس بحرمتها يعني انتهاك للسيادة الوطنية وهوية الأمّة الثقافية والحضارية[30]، ومع ذلك بقي هذا التصوّر خارج التنفيذ، وبقي مجرّد توصيات سياسية لا معنى لها، فانحصرت رتبة الفصاحة، وانحطّت السليقة لدى مستعملها ومتعلّمها في مختلف الأطوار التعليمية، وفي المجالات التقنية والعلمية، وفسحت المجال إلى شيوع اللهجات والعاميات والدوارج في المجتمع العربي، فتفرّقت لغة العرب بالتنوّع اللهجي، وتعددّ العاميات، بعدما وحَّدت الفصحى لغات العرب جميعا وهذّبتها بفضل لغة القرآن الكريم.

تتحدّد اللغة العربية اليوم في ثلاثة مكوّنات لغوية: اللغة الفصحى(لغة معيار)، واللغة المنطوقة الشفوية (الدارجة)، ولغة وسط بينهما هي اللغة المستعملة بين المثقّفين أو في الإعلام. ولعلّ توحّد هذه المكوّنات هو الذي جعل اللغة العربية المعاصرة المنطوقة مزيجا من اللهجة والعربية التي يتعلّمها المتعلّم في المدرسة[31].

ألا ترى إن كنت في بيئة من بيئات العرب المشرقية والمغربية، ، فإذا قلت مثلا ماذا تريد؟ قالها الجزائري أو التونسي: "واش تسْحق؟"، وقال المصري " عايزْ إيهْ؟"، أو قو الشامي "شو بدّكْ". فمن بقيّة العرب من يفهم ومنهم من لا يفهم ، ولا يكون التواصل بمثل هذا إلاّ عسير إلاّ إذا اطّرد في كلام الجماعة، وتواتر بشكل يوصف بالتعوّد، فإذا تواصلت بمثل هذا حدث الشرخ بين الثقافات والشعوب، وإذا استعنت بالفصحى للإفهام كان التواصل ممكنا والطريق أيسر للفهم والإفهام. وهو دليل على أنَّ الفصحى هي اللغة المشتركة بين العرب جميعا وأنَّها لم تقم على لهجة معيّنة[32]، وتلك حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف وتعدّد قراءاته.

ثانيا – رهانات اللغة المستقبلية[33]:

أصبح العربي لا يعرف عربيته، فتسمع لقوله: "أنا لا أعرف العربية، كيف تقولون هذا؟ ثمّ يلفظ بالأجنبي في المقابل، ويبرّر موقفه بأنّ ثقافته أجنبية ، والغريب أنّه يعيش في بلده العربي، ومن ذلك أيضا من يعرف اللغات، ولكنّه مع ذلك يختار التكلّم باللغة الأجنبية. ولعلّ هذا الولاء موروث من ثقافة استدمارية أنطقت ذا اللسان العربي حتّى أصبحت عقدة لدى الكثيرين؛ لأنّها تومئ باعتقادهم بالتطوّر والتحضّر.

في حين رأينا الكثير من الأمم الأجنبية تتسابق في تعلّم اللغة العربية، بل نسمعهم يتكّلمون بها أفضل من كثير من أبنائها الذين أهملوها بصفة جزئية أو كليّة.

ولكنّه من مبادئ الأنظمة العالمية الجديدة السائدة التي تفرض هيمنتها ، وتفرض سلطانها لتجعل الآخر رهينة عندها تابعا لها طوعا أو كرها.

يبدأ التفكير في استراتيجية تطوير اللغة العربية من حدود لازمة واجبة البحث للاندماج مع معطيات الحضارة العصرية؛ لتحقيق التوازن اللغوي والفكري مع المجتمعات المتحضّرة، وينتهي بفكر ممكن في حدود استشراف المستقبل ضمن منظومة اجتماعية فكرية وسياسية تساعد على تحقيق هذا المطلب حتّى نتمكّن من تقوية اللغة، وتنفيذ سياسة تكوينية من أجل تحقيق استراتيجية ثقافية شاملة.

إنّ تفعيل نموّ اللغة العربية لا يكون إلاّ بدرجة الوعي الحضاري والعقدي لدى مستعملها ومتكلمها، إذ لا بدّ أن يرهن مستقبلها باستخدامها الوسائل

التقنية المعاصرة، كشبكة المعلومات العالمية التي تحتكرها اللغة الانجليزية اليوم، بسبب ما بَلغتْه من التطوّر والرقي والمدنية، ولا يتحقّق هذا الأمر ما لم يكن لدينا الوعي الحضاري والعلمي الذي يتطلّب تخطيطا وسياسة حكيمة على مستوى الفرد والجماعة والهيئات الرسمية، ومن ثمّ لا بدّ أن تتحوّل اللغة العربية إلى لغة العلم والتقنية والثقافة. وذلك يتطلّب توحيدا للصفوف أولا بين العرب جميعا ليكون الوعي الجماعي والقومي، ثمّ العمل على توحيد المصطلحات، والترجمات، والمحتويات التعليمية، وتوجيه التعليم التوجيه الذي يتلاءم وطبيعة العصر التقنية والعلمية، والخلفيات الحضارية والثقافية والعقدية للشعوب العربية.

يرتبط مستقبل هذه اللغة بمواجهة التحدّيات الكبرى، تلك القوّة التي تحاصر بها الدول العظمى الدول الأقل هيمنة وتحضّرا، وتفرض على المجتمع الدولي نظامها العالمي، تلك المواجهة لن تنجح إلاّ بعامل القدرة الذاتية في مستوى الأفراد والجماعات، والهيئات، والتوفر على الوعي الحضاري الرشيد، والحفاظ على الهوية وخصوصياتها الثقافية والحضارية[34]. فإنّ كان الإخفاق السياسي سببا في تحقيق الوحدة العربية فهو من العوامل الكبرى التي تؤدي إلى الاختلاف في التنمية اللغوية بسبب اختلاف الرؤى والسياسيات، والمصالح الإقليمية .

ومن ثمّ كانت العولمة المملكة التي يحكم فيه على العالم، ويقضى فيها الأمر فيطاع بما تملكه من دواعي الهيمنة والسلطان كالقوّة والعلم. ومن هذا المنطلق أضحى أمن لغتنا الجميلة مهددا، وإنّا مع ذلك لا نطالب باستعمال الفصحى العليا، ولكنّنا نأمل في الحفاظ على عربية صحيحة بالقياس على السنن النقلية الموجودة في الفصحى. فما دمنا أمّة مسلمة فلابدّ من الحفاظ على لغة القرآن والحديث وغريب الشعر، لفهم معانيه، وأحكامه وغريبه، وتفسيره، وإلاّ استغلق علينا أمر ديننا، فالتصوّر الخاطئ بأنَّ اللغة العربية صعبة المنال، عسيرة الاستعمال هو الذي أدّى إلى النفور من تعلّمها[35]، ومرجع هذا الوهم ما خفي في أعماق النفس العربية بسيطرة اللغات الأجنبية إلى حدّ التباهي بها؛ لأنَّها صارت في الاعتقاد مظهر التقدّم والتحضّر. وقد زاد التواصل التقني والحوارات العامية – الهواتف، وشبكة التواصل، والتلفاز، وغيرها – في تعقّد الإشكال ،وهو ما يؤدّي إلى ضعف السليقة وضعف المستوى العلمي.

إنّ الضعف العام في استعمال اللغة العربية من لدن المتعلّمين ، أو إشكال التدريس بها من لدن المعلّمين والمثقّفين أثبت بحقّ مسألة الأمية الجديدة، ومن ثمّ أصبحت أزمة الفصحى من أزمة الأمّة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، التي تترجم التأخر الحضاري والفكري. نجسّد ذلك في قول بعض الباحثين : "إنّ اللغة الفرنسية لا يزال ينظر إليها باعتبارها لغة النخبة، العلم و التقدّم، في حين أنّ العربية هي لغة العامة الصالحة للشعر، لا للتقدّم والتنمية"[36]. فعلى الرغم من خروج الجزائر من عهد الاستدمار الفرنسي الذي أراد إبادة اللغة العربية والهوية الوطنية أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية بنص الدستور في التعليم، والإدارة، والإعلام السمعي البصري، إلاّ أنّ الإرادة السياسية ما تزال ضعيفة في تغليب تنمية الهوية الوطنية عبر هذه اللغة العربية، حتّى لغة الخطاب السياسي جملة في الجزائر يكاد يكون باللغة الأجنبية في الغالب، أو باللغة العامية في ما بقي، وبقيت اللغة العربية ضعيفة في المؤسسات التعليمية والتربوية وغيرها.

خاتمة:

تفاقمت أزمة اللغة العربية بسبب ما آلت إليه من فساد وضعف، فقد أفقدت العربي هويته، واعتزازه بعربيته، وشعوره بقوميته، وهو ما ثبّت في نفسه الروح الانهزامية والتبعية للأقوى، فوضع الأمّة في مرحلة حضارية معقّدة أمام مستقبل غامض ومجهول، تتلاشى فيها المظاهر الثقافية للمجتمعات العربية الإسلامية وهيئاتها، فأصبحت تائهة في غياب التخطيط العلمي، والاستقرار الحضاري والفكري، والعقدي. فضلا عن سيطرة الثقافة الغربية بسبب الاحتلال الأجنبي، والغزو الثقافي الغربي، وتحدّيات العولمة التي أوقعتها في شراك يعسر الإفلات منها بسهولة.

فهل يمكن للأجيال القادمة استعادة النهضة وتطوير هذه اللغة ، وجعلها لغة العلم؟ هل سيكون هذا الحظّ مقيّدا بشروط سياسية وإقليمية أم يكون ثورة حقيقة تتجسّد فيها مشاريع اجتماعية تضبطها الحكومات العربية في مجامعها، لتوحّد فيها رؤاها وأهدافها القومية؟

هذا التساؤل قد يكون عنوانا لبحث استراتيجي، وتخطيط لتنفيذ سياسة لغوية، ولم لا مشروع يتعدّ الإقليم ليشمل بلدان عربية بأموالها ومفكّريها وعلمائها لتحصيل هذا المطلب.

الهوامش والإحالات

(1) مختار درقاوي، ظاهرة الخطأ اللغوي لدى المتعلمين في ضوء اللسانيات التطبيقية، مجلّة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط: المملكة المغربية، العدد: 70، ص42.

(2) عبد العزيز بن عثمان التويجري، حاضر اللغة العربية، منشورات المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 2013. ص14-15.

(3) حافظ إسماعيل علوي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: لبنان، ط1، 2007، ص57-58.

(4) محمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، دار المعارف، مصر، 1976، ص7.

(5) رمزي منير بعلبكي وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكالات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة: قطر- بيروت، ط1،2013،ص53.

(6) المرجع نفسه، ص216.

(7) ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مج2، 157/5.

(8) محمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، ص83.

(9) محمد وحيدي، بين الفصحى والعامية: أغاليط الخطاب التلهيجي، مجلّة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط: المملكة المغربية، العدد: 71، 2013، ص130-131.

(10) المرجع نفسه، ص130.

(11) جريدة الشروق اليومي، العدد 5025، 1مارس 2016، ص17.

(12) رمزي منير بعلبكي وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص197.

(13) المرجع نفسه، ص51.

(14) سلامة موسى، البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى للنشر والتوزيع، ط3، 1964، ص45.

(15) ظاهرة الضعف العام في استعمال اللغة العربية، (دراسة أعدّت بإشراف المجلس العلمي في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية)، المملكة العربية السعودية،1412هـ ص72

(16) عبد العزيز بن عثمان التويجري، حاضر اللغة لعربية، ص17.

(17) حافظ إسماعيل علوي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي، ص42.

(18) رمزي منير بعلبكي وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص14.

(19) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، 2001، ص16.

(20)عبد العزيز بن عثمان التويجري، حاضر اللغة العربية، منشورات المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 2015، ص18.

(21)الشافعي (محمد بن إدريس 204هـ)، الرسالة، تح: أبي الأشبال أحمد محمد شاكر، د.ط، د.ت،ص48.

(22) السيوطي(عبد الرحمن جلال الدين)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل، بيروت، د.ت، 302/2.

(23) أبو نصر الفارابي، كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت: لبنان، ط2، 1996، ص145.

(24) عودة الله منيع القيسي، العربية الفصحى: مرونتها وعقلانيتها وأسباب خلودها، دار البداية : عمان، ط1، 2008، ص177

(25) المرجع نفسه، ص177

(26) حافظ إسماعيل علوي وآخرون، اللسان العربي وإشكالية التلقي، ص46.

(27) المرجع نفسه، ص47.

(28)عبد العزيز بن عثمان التويجري، مستقبل اللغة العربية، ص18.

(29) محمد كامل حسن، اللغة العربية المعاصرة، ص76، 77.

(30)عبد العزيز بن عثمان التويجري، حاضر اللغة العربية، ص25-26.

(31) محمد وحيدي، بين الفصحى والعامية: ص138.

(32) عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، ص108

(33) محمد وقيدي، وجهة نظر من أجل اللغة العربية وبها، مجلّة اللسان العربي، : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط: المملكة المغربية، العدد: 70 ديسمبر 2012، ص126.

(34) عبد العزيز بن عثمان التويجري، اللغة والعولمة، منشورات المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 2008. ص13-14.

(35) ظاهرة الضعف العام في استعمال اللغة العربية ، ص55.

(36) رمزي منير بعلبكي وآخرون، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص117.

مراجع البحث:

1- جريدة الشروق اليومي، العدد 5025، 1مارس 2016، ص17.

- حافظ إسماعيل علوي وآخرون

2- اللسان العربي وإشكالية التلقي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: لبنان، ط1، 2007.

- رمزي منير بعلبكي وآخرون

3- اللغة والهوية في الوطن العربي: إشكالات تاريخية وثقافية وسياسية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة: قطر- بيروت، ط1، 2013.

- ابن سلام الجمحي

4- طبقات الشعراء، دراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية، 2001.

- سلامة موسى

5- البلاغة العصرية واللغة العربية، سلامة موسى للنشر والتوزيع، ط3، 1964.

- السيوطي(عبد الرحمن جلال الدين)

6 - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الجيل، بيروت، د.ت.

- الشافعي (محمد بن إدريس)

7- الرسالة، تح: أبي الأشبال أحمد محمد شاكر، د.ط، د.ت.

-عبد العزيز بن عثمان التويجري

8 - حاضر اللغة العربية، منشورات المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 2013.

9 - مستقبل اللغة العربية، منشورات المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 2015.

10 - اللغة والعولمة، منشورات المنظّمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو، الرباط، 2008.

-عبده الراجحي

11- اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعرفة الجامعية، د.ت.

- عودة الله منيع القيسي

12- العربية الفصحى: مرونتها وعقلانيتها وأسباب خلودها، دار البداية : عمان، ط1، 2008.

- ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم)

13- الشعر والشعراء، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

14- المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ظاهرة الضعف العام في استعمال اللغة العربية، المملكة العربية السعودية،1412ه .

- محمد كامل حسن

15- اللغة العربية المعاصرة، دار المعارف، مصر، 1976.

- محمد وحيدي

16- بين الفصحى والعامية: أغاليط الخطاب التلهيجي، مجلّة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط: المملكة المغربية، العدد: 71، 2013.

- محمد وقيدي

17- وجهة نظر من أجل اللغة العربية وبها، مجلّة اللسان العربي، : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط: المملكة المغربية، العدد: 70 ديسمبر 2012.

- مختار درقاوي

18- ظاهرة الخطأ اللغوي لدى المتعلمين في ضوء اللسانيات التطبيقية، مجلّة اللسان العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الرباط: المملكة المغربية، العدد: 70.

- أبو نصر الفارابي

19 - كتاب الحروف، تح: محسن مهدي، دار المشرق، بيروت: لبنان، ط2، 1996.